



بداية الطباعة العربية
في أسطنبول وبلاد الشام :
قطر المحيط الثقافي

(1706 - 1787)

ك. وحيد قدورة

منشورات المعهد الأعلى للدراسات والبحوث العدد 8

تونس 1985

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص الكتاب

لم يبرز فن الطباعة بالأحرف العربية بالشرق الا بعد قرنين ونصف من ظهوره بأوروبا وفي الاثناء حافظ المخطوط العربي على مكانته لدى المتعلمين باعتباره وعاء الكتابة الرئيسي لنقل المعلومات الى ان بادرت الطائفة الارثوذكسية بسموريا بتأسيس أول مطبعة عربية وذلك بحلب سنة 1118 هـ / 1706 م ثم تلاها المسلمون سنة 1140 هـ / 1726 م بإنشاء مطبعة بالحرف العربي باستانبول وبرزت بعد ذلك مطبعتان مسيحتان اخريان بجبل لبنان أي بشويز سنة 1147 هـ / 1734 م وببيروت سنة 1165 هـ / 1751 م .

وقد ركزت الدراسة على تحليل الظروف التي أحاطت بنشأة المطبعة العربية بالشرق وأسباب التأخير الحاصل في ظهورها بالنسبة لاوروبا وتناول البحث بالتحليل أيضا محتوى الكتاب العربي المطبوع وتأثيره على مجرى الحياة الثقافية في القرن الثامن عشر الميلادي .

إن ظهور أربعة مطابع في ظرف نصف قرن يعتبر دليلا واضحا على بروز تغيير جذري في توجهات المجتمع العثماني وتطلعه للدخول في مرحلة جديدة من تاريخه الا وهي مرحلة التجديد الفكري والثقافي التي سيلعب فيها الكتاب المطبوع دورا هاما في التعريف بها ، وما تبني آلة الطباعة الا دليلا على حرص الشرقيين على ايجاد شكل جديد لوعاء الكتابة لنقل وبت الافكار الجديدة التي بدأت تظهر في القرن الثامن عشر بين أوساط المثقفين ورجال النفوذ والتي تتعلق بالتصور الجديد للمجتمع وكيفية النهوض به .

إن معالجة موضوع أسباب التأخير في دخول الطباعة العربية للعالم الاسلامي يأخذ بعدا كبيرا حين نعلم ان المسلمين كانوا على دراية تامة بوجود

هذا الاكتشاف بأوروبا منذ القرن الخامس عشر بل قبل ذلك بكثير وذلك في مهده الأول ببلاد الصين أين اخترعت الأحرف المتحركة منذ القرن الحادي عشر . وي طرح نفس المشكل بالنسبة للمسيحيين العرب الذين كانوا مطلعين على مطابع بقية الأقاليم الدينية في الدولة العثمانية من يهود وارمن ويونانيين الى جانب تقبلهم للكتب العربية المطبوعة بأوروبا منذ بداية القرن السادس عشر وهذا عنصر آخر هام يضاف الى بقية عناصر المشكلة .

ولهذا كان من الضروري البحث عن تحفظات المسلمين والمسيحيين العرب إزاء استعمال فن الطباعة وأسباب اعتراضهم على تعويض المخطوط بالكتاب المطبوع . ولا يمكن فهم كل جوانب الموضوع الا بوضعه في إطاره التاريخي مع التركيز على الفترة التي سبقت دخول المطبعة العربية للمشرق والتي تعتبر أساسية في التعرف على تفكير المثقفين في الدولة العثمانية بخصوص مستقبل الحضارة الاسلامية ، وما الرغبة في تغيير الادوات الثقافية الا تعبير واضح عن عزيمية الشرقيين في تبني منهجية جديدة في العمل الفكري وأسلوب جديد في تغيير المجتمع حسب مقتضيات العصر وطريقة متميزة في تعاملهم مع الغرب ، ذلك أن تبني المطبعة يعتبر تفتح على مكتشفاتها وتقنياتها

ان استعارة فنون الطباعة كانت فرصة ثمينة للمسلمين للتعاور حول طرق تجديد مجتمعهم على مختلف الأصعدة وايضا لتقييم الرصيد الحضاري الذي وصلوا اليه . وفي خضم هذه المناقشات كانت الاختيارات صعبة نظرا لاختلاف الرؤى ولتناقضها بالخصوص، حيث برز تياران متنازعاان الاول تقليدي محافظ والثاني متجدد متفتح وكانت النزعة الاولى تعارض مبدأ استعمال التقنيات الحديثة الواردة من أوروبا باعتبارها من اختراع الكفار وتري، في ترك الوسائل التقليدية المعتمدة آنذاك بمثابة الاعلان الصارخ عن القطيعة مع الماضي المجيد ولذلك فانها ناهضت بشدة عملية إدخال المكتشفات السليمة الأوروبية اذ انها تحمل آراء ونظريات غريبة هدفها غزو المجتمع وتحدي المسلمين في عقر دارهم .

اما النزعة الإصلاحية فقد كانت تعمل على الدفاع عن المجتمع الاسلامي من زاوية أخرى وذلك بالتفكير في أسباب الانحطاط وطريقة النهوض به بالاعتماد على التجربة الغربية انطلاقا من استعمال تقنياتها المتطورة وتري في ذلك النهج الأمثل لتطوير المجتمع والانتقال به الى مرحلة حضارية جديدة.

إن الحوار بين المسلمين بخصوص النهوض بالمجتمع كان في بدايته في القرن الثامن عشر وكانت قضية المطبعة من أوائل المشاكل التي طرحت آنذاك

وقد حصل الصراع بين المحافظين والإصلاحيين حول ادخالها وهو في الآن نفسه يعبر عن خلفية أخرى في الصراع الحضاري بين المخطوط والكتاب المطبوع بين القديم والحديث وباختصار فهو صراع بين الجمود والتطور .

وإذا ما دافع المحافظون عن المخطوط فباعتباره وعاء الكتابة الذي نشر تعاليم الاسلام وايضا لانه كان مخلصا في نقل القيم الحضارية للمسلمين عبر العصور ، وبالتالي فانه من المجازفة أن يقع ابداله بالكتاب المطبوع لان هذا الوعاء الجديد للمعلومات يأتي من بلاد غير اسلامية وهو محل ريب فضلا من تشويبه الكتابة العربية الجميلة بتعويضها بأحرف معدنية فيفقد الحرف العربي جماله و « قدسيته » باعتباره الرسم الذي كتبت به الآيات القرآنية وأخيرا يعتبر المحافظون ان فن الطباعة سيزاحم مهنة الوراقة وسيحرم بالتالي آلاف النساخين من مورد رزقهم .

أما الإصلاحيون فيرون المخطوط من زاوية أخرى فهم يعيرون عليه عجزه على نقل قيم ومكتسبات الحضارة الاسلامية وعدم قدرته على الاكثار من نسخ المؤلفات العربية التي هي بصدد الانقراض كما أنهم يهاجمون النساخين لاهمالهم وعدم شعورهم بتقل المسؤولية الملقاة على عاتقهم في المحافظة على تراث الأمة المكتوب فعملهم بطيء وغير جيد اذ يكثر من الاخطاء ومع ذلك فان أسعار المخطوطات بأعضة لا تمكن المسلم المتوسط الحال من اقتنائه وهذا ما ساهم بقسط وافر في حرمانه من العلم وتسبب بالتالي في انتشار الأمية في ربوع العالم الاسلامي .

انه من الضروري ان نتساءل عند تتبع هذه النقاشات الثرية بين المحافظين والإصلاحيين ان كانت هذه الندوات تمهيدا للتيارات الفكرية الكبرى التي عرفت في القرن التاسع عشر والتي ساهمت في ظهور حركة النهضة الادبية العربية خاصة وان الاداة الأساسية في نقل الآراء والمعلومات كانت الصحافة والكتاب المطبوع ، وهذا لان الباحثين المعاصرين عند دراستهم لحركة النهضة كانوا يقتصرون على تناولها في فترة وقوعها دون التأمل في بدايتها وهنا يجدر بنا أن نتساءل ثانية ان كان من المجدي تحديد بداية النهضة العربية مع دخول الطباعة العربية للدولة العثمانية أي في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي .

لهذا كان لزاما علينا عدم عزل ظاهرة المطبعة وعدم الاقتصار على اعتبارها مجرد آلة صناعية بل اقحامها في الاطار الاجتماعي والتاريخي للمشرق الأوسط في

القرن الثامن عشر ووضعها في خضم التحولات الاجتماعية التي بدأت تغير العالم الاسلامي .

إن دراسة هذه الفترة التي عرفت تحولات جذرية هي أساسية لالقاء مزيد من الاضواء على ظهور المجتمع العثماني الحديث وما القرن الثامن عشر الا نقطة اتصال بين عهدين : عهد جمود وعهد يقظة العالم الاسلامي .

تنقسم هاته الدراسة الى جزئين ، تناول الجزء الاول تحليل التحضيرات العربية لدخول المطبعة سواء لدى المسلمين وذلك بتتبع أطوار الحوار الذي دار بين المحافظين والاصلاحيين ، وأيضا لدى المسيحيين العرب الذين سعوا للحصول على مطبوعات من أوروبا وخاصة من كنيسة روما وحاولوا انشاء مطبعة بقوزجية بجبل لبنان سنة 1610 لكنها سرعان ما توقفت .

اما الجزء الثاني فقد خصص لدراسة مراحل تأسيس المطابع العربية ابتداء من تحليل ظروف نشأتها الى الصعوبات الفنية والمادية التي اعترضتها وقد وقع التركيز بعد ذلك وبدرجة كبيرة على دراسة اسهام مختلف المطابع في التحول الثقافي والاجتماعي من خلال التعرف على محتوى الكتب المطبوعة ووجهتها وتوزيعها وصددها لدى المتعلمين وهذا ما ساعد على التعرف على مفهوم المطبعة لدى الشرقيين من خلال ما عبروا عنه في كتبهم المطبوعة وعن انشغالاتهم وتصوراتهم لمجتمع المستقبل .

اما عن النتائج الحاصلة فقد ابرزت الدراسة أولا ومن خلال الارقام ضعف الانتاج المطبعي وهو ما يدل على صعوبة الانطلاقة بالنسبة للمطابع الاربع اذ لم تتوصل مطبعة استانبول الا لطبع عشرين كتابا (فيما بين سنتي 1726 - 1787) ، اما حلب فقد اصدرت ثمانية كتب (1706 - 1711) وتوصلت شوير الى طبع تسعة عشر كتابا (1734 - 1787) ، اما بيروت فلم تصدر سوى كتابين اثنين (1751 - 1766) . ثم بينت الدراسة ثانيا اختلاف التصورات لفوائد الطباعة سواء لدى المسلمين أو المسيحيين واختلافات تأثيرها على مجرى الحياة العلمية والادبية .

فبالنسبة للمسيحيين سخرت المطبعة لخدمة الدين ولترسيخ عقائد كل من المذهبيين الارثوذكسي والكاثوليكي فقد نظروا للكتاب المطبوع لا باعتباره وسيلة لنشر العلوم الحديثة أو لتوعية فكرية بل بوصفه أداة لبلورة وتنشيط شعورهما الطائفي . فظهرت طبعا عديدة للكتب المقدسة والطقوس المسيحية المختلفة والجدل الديني وكلها تكسر الصراع الطائفي

بينها والجدل القائم منذ دعوة كنيسة روما للاتحاد مع الكنائس الشرقية في القرن السادس عشر .

ان مؤسسي مطابع حلب وشوير وبيروت وهم من رجال الدين المسيحي كانوا يشجبون دور المخطوط الذي يتهمونه بنشر الاكاذيب والبسوس والتحريفات حول الديانة المسيحية في الشرق وعلى العكس من ذلك فانهم يرون في الكتاب المطبوع فاتحة عهد جديد حيث سيقضى على الانشقاق ولكن لكل طائفة تصورها الخاص في نشر الكتب الدينية السليمة من الاخطاء العقائدية والتشويهات اللغوية التي سببها الناسخون .

اما عن نتائج ادخال المطبعة لدى المسلمين باستانبول ، فقد كانت مختلفة عما وصل اليه المسيحيون اذ اقتصر ابراهيم متفرقة ومن خلفه على نشر كتب غير دينية خوفا من تحريفها واهتموا اذن بمواضيع أخرى وبما ان المطبعة كانت بايدي رجال الباب العالي فقد سخروها للدعاية السياسية وذلك بنشر كتب عن تاريخ السلاطين العثمانيين ولا يراز أمجادهم وأيضا كانت منبرا للاصلاحيين حيث ظهرت كتب تدعو للاصلاح السياسي والعسكري لاستعادة الامجاد الماضية

اما عن صدى هاته الكتب في اوساط المتعلمين في استانبول وبلاد الشام فقد كان ضعيفا وكان الاشعاع باهتا حيث لم تجد اقبالا واسعا نظرا لعدم استعداد المثقفين ، وعددهم قليل ، لقبول هذا الوعاء الجديد للكتابة ونظرا لقلّة الكتب العلمية الهامة التي طبعت وأيضا لانعدام سياسة ثقافية واضحة لدى الباب العالي تكون فيها المطابع احدي المؤسسات التي تشع على المجتمع بتزويد المدارس والمكتبات بالكتب والوثائق الضرورية .

ومهما كان الامر فان ادخال الطباعة العربية بالمشرق كان علامة بارزة في تاريخ هاته المنطقة حيث تدل على بداية تفتح المجتمع العثماني على العالم الغربي باستعمال مكتشفاته وعلومه ولكن ذلك لم يساهم في نشر العلوم الحديثة ولا في انتقال الآراء الجديدة بين مختلف الطوائف بل كانت القطيعة واضحة . وبالرغم من بداية تعود المثقفين على استعمال الكتاب المطبوع وعودة الرغبة في القراءة بفضل هذا الشكل الجديد من أوعية الكتابة فان المخطوط بقي سيد الموقف حتى منتصف القرن التاسع عشر ومن هنا فقد كان بقاؤه رمزا لتواصل الاسلوب الحضاري القديم حتى عصر النهضة .

هذا ملخص البحث الذي قدمناه باللغة الفرنسية .

والله ولي التوفيق